الفصل الحادى عشر

تداعى الخواطر وترابطها[1]

تجرى الخواطر فى الذهن ، بحيث يشعر بها صاحبها ، أو تهبط إلى هامش الشعور ، أو تصدر عن اللاشعور ، وهى فى جميع هذه الحالات تتصل بعضها ببعض و يتبع أحدها الآخر طبقاً لنظام وترتيب ، فالخواطر النفسية لا تظهر فى مجرى الشعور عفواً دون نظام أو ترتيب ، بل لوجود حالة نفسية تتبعها حالة نفسية أخرى بالذات ، سبب من الأسباب . فورود الخواطر فى الذهن يتلو بعضها بعضاً يسمى تداعى الخواطر .

فهذا رجل قد جلس إلى مقهى فى الطريق يرقب المارة ، وهو يرى السيارات تجرى والناس يمشون ، والباعة ينادون على بضاعتهم ، وإذا بطفل يعدو عابراً الطريق قد ارتبك فى حركته وأقبلت عليه سيارة أوشكت أن تدهمه ، وأدرك صاحبنا الخطر المحيق بالطفل ، فتأثر وخشى عليه من الاصطدام ، ومال إلى مساعدته ، ولكنه خاف أن يدهم مثله فتردد ، ثم عاد ضميره يؤنبه ، ودفعته المروءة أن يقوم فى سرعة لإنقاذه ، فى هذه اللحظة تصور أولاده لو كانوا فى هذه الحالة ، وتصور نفسه لو دهمته السيارة وأودت بحياته .

هذا التتابع فى الحالات النفسية هو ما يسمى التداعى ، فصورة الطفل « تدعو » فى ذهن ذلك الرجل صورة أولاده ، وإدراك الخطر يدعو إلى الخوف ، والخوف يدعو إلى النكوص ... وهكذا .

---

(١) Association des idées.

و إذا كانت الحالة النفسية تدعو حالة أخرى ، فذلك لأن بين الحالتين صلة ورابطة ، وقد تكون الصلة الموجودة بين الأشياء ضرورية ، مستمدة من طبيعة الشيء مثل صلة العلة بالمعلول ، والوسيلة بالغاية ، والجزء بالكل . . . . ألخ مثل الصلة بين المطر والسحاب ، و بين النهار وطلوع الشمس ، و بين الشعور بالخطر والخوف ، والإحساس بالعطش وطلب الماء . فالترابط هو الصلة التى تربط الحالات النفسية بعضها ببعض ، والتداعى هو ميل الشخص إلى إيراد الخواطر متتالية الواحد بعد الآخر . لهذا السبب كان الشيء الواحد مصدراً لإثارة خواطر مختلفة فى ذهن أشخاص كثيرين . فلو أن شخصاً آخر شهد ذلك المنظر السابق فإن الخواطر تجرى فى ذهنه على نسق يختلف عن الأول .

و يحدث التداعى بين فكرة وفكرة مثل التداعى بين لفظ نهر ولفظ النيل أو بين صورة صديقك الفوتوغرافية والشخص نفسه . وقد يحدث بين حالة وجدانية وأخرى مثلها ، فالاستغراب من شيء قد يدعو إلى الإعجاب به ، أو بين حركة وحركة ، كما يدعو إمساكك بالقلم أن تكتب به ؟

وقدتنتج هيئة الجسم الحالة الوجدانية التى تصاحبها ، فالسجود والركوع يحدثان عاطفة دينية ، أو العكس تؤدى الحالة الوجدانية إلى الحركة ، فالخشوع الدينى يدعو الشخص إلى الركوع ، كذلك يكفى أن ترسم على وجهك ملامح الحزن ، حتى تجد نفسك حزيناً بالفعل ، وقد رأينا ذلك واضحاً عند الكلام على الانفعالات .

قوانين التداعى الأساسية :

سنجرى الآن تجربة تعرف باسم « التداعى المقيد » ، وهى أن يضع المجرّب فى الجدول الآتى الكلمة التى ترد فى ذهنه مباشرة بعد قراءة الكلمة الموضوعة ، مثال ذلك إذا قرأتُ كلمة (نهر) فإن ما يرد فى ذهنى بعدها مثلا هى كلمة (النيل) . لا تتوقف ولا تتردد واذكر أول كلمه ترد فى ذهنك .

ترعة		غاندى	
مدرسة		الجامع	
أبيض		ليل	
موز		طفل	
غنى		شارع	
تمثال		قميص	
الهند		يابس	
غواصة		إمرأة	
سعد		قطن	
كبير		شهر	

إذا بحثنا الكلمات التى نحصل عليها من هذه التجربة ، نجد أن هناك رابطة تصل بين كل كلمتين . هذه الروابط الأساسية هى التلازم والتشابه والتضاد . وقد وصل القدماء إلى كشف هذه القوانين العقلية ووصفها « أرسطو » على النحو الذى نذكره الآن .

١ — التلازم .

إن وقوع حالتين نفسيتين متلازمتين باستمرار فى مجرى الشعور ، يكون سبباً فى

تتابعهما فى الظهور ، إذا ظهرت إحداهما . وقد يكون هذا التلازم لفظياً مثل نهر النيل والجامع الأزهر ، فإننا تعودنا سماع الكلمتين متجاورتين باستمرار . وقد يكون التلازم فى الزمان مثل الظهر والعصر . وقد يقع التلازم فى المكان مثل مكة والمدينة .

٢ — التشابه .

من الأسباب القوية التى تربط الأشياء بعضها ببعض تماثلها من أى ناحية من النواحى ، كالتشابه فى الشكل أو اللون أو المعنى . فالصورة تدعو إلى التفكير فى صاحبها ، ورؤيتك الابن تبعث إلى التفكير فى والده وذلك لمجرد وجود تشابه فى الخلقة أو فى نبرات الصوت . ونلاحظ أنه كلما أخذ التشابه يضعف ، قل الميل إلى التداعى أيضاً .

٣ — التضاد .

كذلك الخاطر قد يدعو فى الذهن ما يضاده ، فإذا خطر لك الغنى استرسلت إلى الفقر ، أو الليل يدعو إلى النهار ، وفكرة البياض تدعو إلى فكرة السواد ، أو كالمسافر فى البحر ينظر إلى الماء فيخطر فى ذهنه اليابسة لتضاد الفكرتين .

التلازم والتشابه والتضاد من القوانين الأولية التى نبه إليها أفلاطون وأرسطو قديماً ، وقد وجهت الاعتراضات إلى قصر الحياة العقلية على هذه القوانين الثلاثة . وقيل إنه يجب أن تضاف إليها الارتباطات المنطقية ، أى الصلة الضرورية بين المعانى أو بين الأشياء ، مثل الترابط بين المبدإ والنتيجة ، العلة والمعلول ، الوسيلة والغاية ، الجنس والنوع . فالطبيب حين يشاهد على المريض أعراضاً خاصة يتجه ذهنه إلى نوع من المرض ، فهذه علاقة العلة بالمعلول ، ثم يفكر فى أسلوب من العلاج ، والعلاقة بين العلاج والشفاء هى علاقة وسيلة بغاية . والرياضى حين يلاحظ

تساوى زاويتين فى مثلثين محصورتين بين ضلعين متساويين فى كل منهما ، يتجه ذهنه إلى انطباقهما ، وهذه علاقة النتيجة بالمبدأ .

القوانين الثانوية :

هناك قوانين أخرى ثانوية هى التى تدعو إلى تسلسل المعانى والخواطر فى الذهن ، ويحسن إجراء التجربة الآتية لتستبين منها هذه القواعد ، وهذه التجربة تسمى « التداعى المطلق » . والفرق بينها وبين التداعى المقيد ، أن الأخيرة كانت كل كلمة مقيدة بكلمة تسبقها ، فتلزمك أن تبدأ بها فى التفكير ؛ أما فى التداعى المطلق فإنك تبدأ بكلمة واحدة ثم تترك نفسك لخواطرك تنساب فيها ، بعد أن تستمد بدايتها من هذا الأصل . وينبغى أن يبتعد المجرب عن جميع المؤثرات وأن يجلس فى مكان هادئ ، ثم يطلق لفكره العنان ولا يحاول أن يوقف مجراه . وقد أجريت التجربة التالية على أحد الأشخاص فى يوم الثلاثاء الذى يوافق عشرين من شهر اكتوبر سنة ألف وتسعمائة وست وثلاثين بالقاهرة وكانت النتيجة كالآتى : —

شارع — طريق — قهوة — محمد — حسين — سينما — تمثيل — سهر — معاهدة — محالفة — استقلال — جيش — حرب — خوف — موت — غلاء — فقر — غنى — راحة — موسيقى — غناء — أناشيد ....

إذا درسنا هذه الكلمات نجد فيها مجموعات متصلة مثل (سينما — تمثيل — سهر) ومجموعة أخرى مثل (معاهدة — محالفة — استقلال — جيش) ومجموعة ثالثة هى (حرب — خوف — موت) ومجموعة رابعة هى (غلاء — فقر — غنى) ومجموعة خامسة هى (راحة — موسيقى — غناء — نشيد) .

والصلة بين هذه المجموعات ، و بين كلمات هذه المجموعات بعضها و بعض ، ترجع فى كثير من الأحيان إلى قوانين التداعى الأساسية التى ذكرناها ، كما هو واضح . ولكن هناك أسباباً أخرى هى التى تبعث الإنسان إلى ذكر بعض المعانى ، وهى التى توجهه وجهة معينة ، مثال ذلك ذكر « المعاهدة » فهو نتيجة الحوادث السياسية الشاغلة للأذهان فى مصر وقت إجراء التجربة ، وهى معاهدة التحالف والصداقة بين مصر و إنجلترا . وأهم هذه القوانين أربعة :

١ — الشيوع :

فهناك أشياء تشيع فى بعض الأوقات ، وتصبح حديث المجالس ، ومضغة الأفواه ، كالأمور السياسية التى تجرى فى وقتها ، والاختراعات الحديثة التى تبدأ فى الذيوع والانتشار مثل « الراديو » فى مبدإ أمره . وقد يصدر أحد كبار الكتاب مؤلفاً جديداً فيصبح مصدر مناقشة أدبية بين أهل العلم مدة من الزمان . هذه الأمور الشائعة التى تتردد على ألسنتنا ونذكرها فى كل وقت وفى كل زمان ، توجه الذهن وتبعث الخواطر التى تجرى فيه .

٢ — الجدّة :

والجدة مصدر جديد . ونقصد بالجدة أن الحادث الجديد يلفت النظر و يجذب الانتباه ، و يقطع سلسلة التداعى الماضية ، و يكوّن بداية سلسلة جديدة . فإذا كنت تقرأ فى جريدة ، ثم وقع بصرك على نبأ موت صديق — وهذا هو النبأ الجديد — فإنك تبدأ فى سلسلة من التداعى مصدرها ذلك الخبر ؛ و إذا كنت فى حجرة مقفلة ، تجلس فيها منفرداً تفكر فى هدوء ، ثم فتح باب الغرفة ودخل عليك منه شخص ، فإنك تقطع سلسلة تفكيرك الهادئة ، وتشرع فى التفكير بشكل جديد .

٣ — الميل الغالب :

كل شخص مركب من مزيج من الميول والأهواء ، هى التى توجهه وتسيره فى الحياة ، هذه الميول تشغل نفس صاحبها ، وتملك عليه كل تفكيره ، كما ذكرنا عند الكلام على العاطفة فقلنا إن البخيل تدور حياته على المال والعالِمَ على العلم . فالشخص الذى يميل إلى ارتياد دور الخيالة تجد أحاديثه مملوءة بها ، والعالم لا ينفك عن التفكير فى العلم .

٤ — الاتجاه العقلى :

ونعنى بذلك حالة العقل التى يكون عليها فى الوقت الذى تتسلسل فيه الخواطر . فالحقيقة أن الإنسان لا يظل على حالة واحدة طول الحياة ، بل يتنقل فى حالات شتى متباينة ، فساعة يكون منقبضاً ، وساعة منشرحاً ، وتجده متشائماً حيناً ، ومتفائلا حيناً آخر ، ويكون تعباً فى وقت من الأوقات ، مستريحاً فى وقت آخر ، ويكون هادئاً رزيناً زماناً ، وثائر الأعصاب ينظر إلى العالم بمنظار أسود زمناً آخر . هذه الحالة النفسية التى تسود الإنسان ساعة التداعى ، تؤثر فيه ، ويخرج تفكيره مصطبغاً بذلك اللون .

قيمة التداعى :

تداعى المعانى أساس أغلب العمليات النفسية . فقد رأينا أن معظم سلوك الإنسان أعمال آلية ، يكتسبها بالتعلم خلال الحياة . والتعلم الحركى مثلا يفرض تعدد كثير من الحركات تتصل ببعض عن طريق الروابط التى ذكرناها . بل حياة الحيوان تقوم على قوانين الترابط ، وقد أمكن العلماء أن يصلوا بتدريب الحيوان إلى تحقيق هذه النظرية . فالكلب الذى يسيل لعابه حين يسمع دقات الناقوس

قد تعلّم أن يربط فى ذهنه صوت الناقوس بحضور الطعام ، فأصبح يكفى أن يسمع الصوت حتى يسيل لعابه . فالأفعال المنعكسة المعدلة تقوم على الترابط .

وعملية التذكر تقوم على أساس الترابط كما سنذكر فيما بعد . فالإنسان حين يريد أن يتذكر اسم صديق نسيه ، يستحضر فى ذهنه صورته أو صورة منزله أو أسماء أصدقائه الذين يتشابهون معه فى مخارج الحروف .

والتداعى أساس كثير من المعتقدات الفاسدة التى لاتستند إلى حقيقة ، فالتشاؤم من العدد ١٣ نشأ من أن أناساً — كما يقولون — كانوا جلوساً إلى مائدة واحدة وعددهم ثلاثة عشر ، فحصل أن أصاب بعضهم نكبات محزنة ، فاقترن حصول النكبات بالعدد ١٣ ، والحقيقة أن حصولها لم يكن نتيجة ذلك العدد .

وتستطيع أن تستغل قوانين التداعى فى قراءة الفكر ، لأنك عرفت أن الخواطر تجرى فى الذهن بنظام خاص طبقاً لقوانين معروفة ، فإذا أضفت إلى ذلك معرفتك بميول الشخص الذى تحدّثه ، والحالة النفسية التى تسوده ، والحوادث الطارئة التى تحصل فى ذلك الوقت ، وتكون مثيرة لاهتمامه ، استطعت بسهولة أن تستنتج مايدور فى خلده من فكر .

والتداعى كذلك أساس التحليل النفسانى الذى نعالج به كثيراً من الأمراض العصبية ، وكثير من هذه الأمراض نتيجة العقد النفسية المكبوتة . ولعلك تتساءل كيف نستطيع الوصول إلى هذه العقد المكبوتة الخفية التى يضع عليها المريض ستاراً كثيفاً يمنع من ظهورها ؟ ذلك أن الرقابة التى يضعها العقل لإخفاء هذه العقد فى اللاشعور تجوز عليها الحيل ، فتَظْهر لنا آثارٌ من هذه العقد فى صور رمزية ، وفى فلتات اللسان . فالعالم الماهر هو الذى يفطن إلى هذه الرموز أو الفلتات ، ويمسك بها أول الخيط الذى يستدل به على تلك العقد النفسية .